ما بعد الكولونيالية

تمهيد:

ينتمي مبحث النظرية "ما بعد الكولونيالية" إلى مباحث النقد المعاصر، وهي نظرية ذات توجه سياسي وثقافي، لأنها تستحضر النص الأدبي لفهم الصراعات السياسية والثقافية بين الغرب والشرق. يتسع الحيز الجغرافي للنظرية "ما بعد الكولونيالية" ليشمل كل ثقافة تأثرت بالعملية الاستعمارية، كما أن هذا الحيز يتنوع بتنوع الثقافات التي عانت من الهيمنة بمعناها الواسع.

- أولا: المصطلح:

قبل الشروع في عرض المفاهيم التي وردت حول "النظرية ما بعد الاستعمارية"، يتوجب علينا الإشارة إلى أن المصطلح ورد بصيغتين مختلفتين في النقد المعاصر، "ما بعد الكولونيالية" و "ما بعد الاستعمارية"، والحقيقة أن الاختلاف قائم في المصطلح. في الاول معرب والثاني مترجم، أما الدلالة فواحدة.

- ثانيا: مفهوم النظرية ما بعد الكولونيالية:

يوظف "سعد البازعي" و "ميجان الرويلي" مصطلح "النظرية ما بعد الاستعمارية"، وهو يقترن عندهما بمصطلح "خطاب ما بعد الاستعمار". هذا الأخير يشير "إلى تحليل ما بلورته الثقافة الغربية في مختلف المجالات من نتاج يعبر عن توجهات استعمارية إزاء مناطق العالم الواقعة خارج نطاق الغرب" (*). إذن فالنظرية "ما بعد الكولونيالية" تعنى بتحليل البنى المعرفية الغربية التي أضمرت توجهات استعمارية إزاء مناطق تتموقع خارج حيز هذه الثقافة.

- ثالثا: في لفظة "ما بعد":

تشير "آنيا لومبا" إلى أن "المصطلح نوقش بعنف على أصعدة عديدة. وقبل كل شيء في البادئة بعد تعقد الأمور لأنها تفترض نتيجتين بمعنيين: زمني كالقدوم فيما بعد. وأيديولوجي كحلول شخص أو شيء محل آخر (كالاستئصال). إن المعنى الثاني هو الذي وجده نقاد المصطلح مثيرا للجدل: فإذا ما كانت أشكال جور الحكم الاستعماري لم تمحى بعد فربما يكون من السابق لأوانه إعلان زوال الاستعمار" (*). لأن الاستعمار ما زال قائما بأشكال مختلفة، ومن بين أشكاله استنزاف ثروات البلدان التي استعمرت تحت شعار الشركات المتعددة الجنسيات.

- رابعا: ما بعد الكولونيالية وما بعد الحداثة:

يقترن مصطلح "ما بعد الكولونيالية" مع مصطلح "ما بعد الحداثة". وهذا الترابط يفسره البعض بـ "ترافق النهوض بالاهتمام بما بعد الكولونيالية، مع نهوض ما بعد الحداثة في المجتمع الغربي. وقد قاد هذا إلى الخلط الكبير والفوضى بين الاثنين خصوصا، لأن المشروع الرئيسي لما بعد الحداثة هو تفكيك السرود المركزية الكبرى والعقلانية المركزية للثقافة الأوروبية، وهو ما يشابه المشروع الرئيسي لما بعد الكولونيالية في تفكيك ثنائية المركز/الهامش للخطاب الإمبريالي" (*).

تشترك "ما بعد الحداثة" مع "ما بعد الكولونيالية" في الإطار الزمني. أما من الناحية الفكرية فإنهما يتقاطعان في نقد المركزية الأوروبية.

- خامسا: أعلام النظرية ما بعد الكولونيالية:

1. هومي بابا: أستاذ الأدب الأمريكي والبريطاني في جامعة هارفرد. من أهم كتبه: أمم ومرويات (1990)، موقع الثقافة (2000).

ينطلق هوم بابا من رأي مفاده أن "موقع الثقافة اليوم لا يقع في لباب نقي، بل على حواف التماس بين الحضارات حيث تنطلق "بينية" و "هجنة" و "هويات جديدة"" (*). أي أن الزعم القائل أن التراث "ما بعد الكولونيالي" تراث نقي هو زعم خاطئ، لأن التماس الذي حدث بين ثقافات الشعوب المستعمَرة والمستعمِرة أخرج ثقافات الشعوب من نقائها.

2. جياتري سبيفاك: عرفت سبيفاك بمقالها الشهير: هل يستطيع التابع أن يتكلم؟ حيث كام هذا المقال "تحديا للعرق والعمى الطبقي للأكاديمية الغربية" (*). وقت تبنت آراء سبيفاك "دراسات التابع" التي كانت محاولة "تمكين الناس في نهاية المطاف من أن يقولوا كلمتهم في الصفحات المتحفظة للتأريخ النخبوي، وأن يعبروا في إثر ذلك عن آراء المقهورين الحقيقيين، أو يجعلوا أصواتهم الخرساء تتكلم" (*).

3. إدوارد سعيد: يعد "إدوار سعيد" من الباحثين الأوائل الذين مهدوا لظهور النظرية ما بعد الكولونيالية من خلال كتبه النقدية ذات الطابع السياسي والثقافي.

أ. **إدوارد سعيد وما بعد الحداثة:** اعتمد "إدوارد سعيد" على المنهج التفكيكي في تبيان العلاقة بين السرديات الغربية والتوسعات الإمبراطورية. فهو "يرى في النصوص الأدبية والروايات التاريخية تمثيلات رائعة للطرائق التي تعمل عبرها الهيمنة. وهو يستعمل "تحليله التفكيكي" لجملة من النصوص الأوروبية المختلفة لاستنفار تفسيرات التابع أملا في تعرية طرائق الإخضاع" (*). فالنصوص الأوروبية ساهمت إلى حد بعيد في توجيه وخدمة المد الإمبريالي، مما يؤكد العلاقة الوطيدة بين السلطة والمعرفة.

ب. **الاستشراق:** يعد كتاب إدوارد سعيد "الاستشراق" أهم كتاب نقدي في مجال "ما بعد الكولونيالية"، وفيه وضح العلاقة المعقدة بين الشرق والغرب، هذه العلاقة قائمة على "التمثيل" فالشرقي لم يتول مهمة التعريف بنفسه، بل أصبح موضوعا للبحث. "فإن عالم أبناء الشرق قد أصبح مفهوما أو يمكن فهمه، واكتسب هويته لا نتيجة لجهود أبنائه، بل نتيجة لسلسلة كاملة من الجهود القائمة على العلم والمعرفة" (*).

مراجع المحاضرة:

- سعد البازعي و ميجان الرويلي: دليل الناقد الادبي (إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط3، 2002.
- آنيا لومبا: في نظرية الاستعمار و ما بعد الاستعمار الأدبية، تر: محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار، سوريا، ط1، 2007.
- سهيل نجم: في الحداثة وما بعد الحداثة.
- هومي بابا: موقع الثقافة.
- ليلا غاندي: النظرية ما بعد الكولونيالية.